عشق الحشائش اليابسة

قصة بقلم ابراهيم بن مراد

قام يريد أن يسعى . تضعضعت على رموشه نسيمة باردة حين التقطت أذناه صوتا متذبذبا . قال : أمامي الان المنطقة الحرام حيث تغوص الرجلان حتى الفخذين في الوحل ، في الطين الاسود الملتهب . ثم صمم . لكن صمت المكان اشعره بان المكان حوله ممتلىء بما لا يدري بالروائح الكريهة او الاذان المنتصبة اصغاء ، او العيون المنتشرة على الارض . لذلك اشتدت برودة النسيمة على عينيه ، ثم تذبذبت على جلده فاختل توازن خطاه ، وارتفعت عيناه الى فوق فرأى صورة الارض على السماء : الملح المترب والشجيرات اليابسة وشعاشيط النخل المحترقة . وشعر بالطين الاسود الملتهب يغوص في قدميه حتى الفخذين . حدق في شجيرات كثيرة منتشرة حوله وبين قدميه . حدق في شجيرة السدر التي أمامه فانتفضت في عينيه حبيباتها المصفرة . ولكنه لم يقرر أن ينثني رغم الطين والاصفرار والسماء . حين قرر كان يحلم بالزرقة المتساودة ، والدائرة المهترئة ، والماء الراكد . حلم بالعمق غير ان العمق في ذهنه غير قار . لكنه متأكد من أمر واحد : ان هذه السبخة تقرقر في أمعائه وفي حلقه ، وأن الماء الراكد الذي يقصده منحبس منذ أزمان في دائرة مهترئة . هي كتلة من زرقة متساودة تنثر فيها قطع من السماء مرتسمة عليها الارض ملحا متربا ، وشجيرات يابسة ، وشعاشيط نخل محترقة ، وشيئا اخر نسيه . قيل : انه تحت الماء الراكد في الدائرة المهترئة حيث الزرقة المتساودة ونظر وراءه فانتفض في رجله اليمنى مستقر شوكة كانت قد انغرزت في باطن قدمه حينما كان ابن سبع يعين أباه ليلا على سقي الغابة . رأى الواحة تبتعد وشعاشيط النخل . رأى نفسه اوغل في السبخة قال : كم يعذب الحلم . ثم تمتم : يا أرض الاحلام . واندفع متوقعا . حتى احاط به في ممره كثيبان من الرمل صغيران . حدق فيهما كأنه يكتشفهما لاول مرة . انبهر أنفه بروائح لم تتميز عفونتها عن طيبها . فقال : لو كنت شاعرا . ولم يشعر كيف اقترنت في تصوره الحبيبات الصفراء في شجيرة السدر بالرمل والذهب حتى امتلأ تصوره بذلك الشعور ، حتى انفلت ذلك الشعور من منطقة التصور لينتشر في المناطق الحساسة من ذهنه وجسده . حتى صار ذهنه وجسده كتلة واحدة من الشعور بأنه لن يبرأ الا حين ينتهي الى الدائرة المهترئة . حيث الارض والسماء والزرقة المسودة . حيث الماء الراكد . وانطلق متوقعا . قال : اما مجرد انسان عادي ابحث عن جواب لمعضلة فهرتني قد نسيتها الان ، وسأجدها في الدائرة المهترئة ، في الماء الراكد ، في الزرقة السوداء .

والناس في تلعثم يتنهدون . يعترضونك . هؤلاء الذين يحررون على الحشيش اليابس أنفاسهم . الذين يأكلون الخبزة وينتظرون الموت . يأكلون الموت وينتظرون الخبزة . أحوال الطقس تحدد العلاقات بينهم ، واحوال البورصة .. لملمت على كرسيك ان شئت لتنظر ما يجري خلف النافذة وما يتدحرج على الحشائش اليابسة من لهاث . فانت عاجز عن ذلك العجز الذي اوقفك مرة امام نفسك كالعجز الذي اوقفك مرات مترصدا موجة برد خفيفة أيبست الحشائش في قاع البحر ، وانبتت الشعر على ألسن هؤلاء المنبطحين على جدران بلا أطر تغطيها صور من هنا وهناك . والنعجة التي نفك من صاحبها والحبل الذي يتدلى في عنقك والبحر الذي تغرق فيه أوهامك وكثبان الرمل التي تخربق صمتها ذيول العقارب وشعاشيط النخل التي يلتهمها « الشهيلي » في تقزز كأملاح الشط التي تقزقزها اقدام كانت تدعى جياد الرحمة وجياد الرحمة قد ذابت في ذلك الطين الاجرب المسلوخ كأنه التهم الموجهة اليك والاشرار التي تغوص فيها أصابعك ولم تشرئب اليها عينك يوما . أين أنت ؟

أمام كأس مملوءة سائلا اسود احتوى من السكر قليلا ومن الاملاح كثيرا فحتام ينفس « الشهيلي » في أمعائك ؟ أكتب لتكتب . فتى يريد أن يغر . أيوب قد اصابته الفدة . وأنت ــ لا محالة ــ تعرف ان الانتباه الى ما يحدث حواليك يعاقب عليه القانون . لتكتب .

ذات ضحى . انبثق من الارض حمر . تطاول القمر على البحر . فاندست فيه سمكة فانثقب القمر وتدحرجت منه حجرة على الارض ، فكانت الارض . وذات مساء . انبثقت من السماء شمس . تطاولت الشمس على الجبل فاغرى بها حصاة هبت على الشمس حكاية لم تستسغها اشعتها ، ففضبت ، فامطرت ، وتلبد تراب الارض على الجبل فكان الجبل . وذات غسق . تطاولت الارض على الجبل ، وانغرز فيها شوكة . فاقتحم تجاعيدها اليأس . فأصاب اجهزة تنفسها عطب فأصابتها سكتة قلبية . فاندثر الجبل . لكن .

لتعترف . ان ليس لهذا الحديث من معنى الا اذا اعدمت صفة الشاعر وصفة الفيلسوف وصفة النبي عنك . الا اذا أقمت العلاقة بين ما تكتب وبين هذا الذي انغمست فيه لحظات تفكيرك . تأمل جيدا . هذه نملة صغيرة تتسلق قضيبا حديديا ، من قضبان نافذة . هذه النملة تريد ان تتسلق الجبل ، اذ تصل القمة . لانها من القاعدة . حتى وصلت القمة فنسيت حقارتها ففتحت ما بين فخذيها ثم ها هي ذي تبول على الدنيا وتشرشر . وهي لن تعدو ان تكون حبة مصفرة من حبيبات . شجيرات السدر . ذلك عندما قالت احدى بنات افكارك لو يستقيم الشط في وقفة عسكرية تاملية ، او يقشعر . عندئذ قد

يتولد ماء او ينفجر غازا او يتزلزل اودية من الرمال السافية الناسفة وقد أعمى الرمل عيون قومك وابناء القرية . قالت : لا تتامل جيدا فانت من الذين يمقتون التأمل وجلسات التأمل ، والتأمل من شأن الصوفيين . قالت : انا اذكر جيدا حينما كنت تنظر الى مبنى شاهق وقد شهقت المدينة بردا اذ تنفس السخط في اسمائها . عندئذ تولدت في صلب ذاكرتك فكرة :انت الباحث فالمبحوث عنه . قالت : وعندما بدأت المحاولة تعرفت عليها . كانت .

كانت كما كنت أشاء ان تكون في كيانها وكينونتها وكل كائن فيها . كذلك ببدأ الحلم . وكذلك بدأ .

عندئذ ، انتهى به تفكيره الى التقرفص ثم الجلوس على فوناي مربع في قاعة صفراء ، دموية الشكل حيث أصغى في انتباه مشوش الى ما قررته فيه تلك التي لم تحبه واعتقد انه يحبها . قال : كنت آنئذ جالسا أمامه . وكنت صامتا صمتا . كنت أهم بالكلام لكني أركن الى الصمت الذي نعود بي حتى كرهني . وكنت أهم بان اعيد ، ان أهم بالكلام ، لكني أصمت صمتا ، لانني كنت متوقعا . كان هناك رجل او شبهه . كان هناك محقق . في طابق عال في مبنى عال . كانت بجانب المحقق او أمامه آلة تسجيل . وانطلق من الآلة صوت .

« هذا تقرير سري اتصلت به مصلحة الاستعلامات القارة وغير القارة التي لم يتقرر مصيرها بعد من المقررة النابهة الذكية الوافية الوفية الحافظة لمتون المالكية والشافعية والابن عاشرية ، ابنة الاكابر ، فلانة » . ثم انطلق من آلة التسجيل صوت انثوي عرفه الجالس على الفوتاي من الحين .

ـ البسملة والحمدلة على ما نفعل وما نقول . عرفته في مقهى من مقاهي المدينة . وطبقا لما تقرر فيه من قبل ومن بعد ومن فوق ومن تحت ومن هنا وهنالك ، احطت به . ، اظهر لي جوعه فوعدته بالاطعام وابان عن عطشه فوعدته بالارواء . استقادني فتقودت ونلاعبنا الورق ثمانية اطراح كان الغالب فيها . فاظهر في الاول انه متعصب للحزب القادري مصبوب على عينيه يخاهر في الحضرة الربانية كلما دعت الحاجة الى ذلك . وفي الثاني أنه من ذرية النبي صالح . وفي الثالث انه من نسل يوسف الحسن . وفي الرابع انه من الشيعة المتشيعين للامام المقتول . وفي الخامس انه يحب القطط عندما ينادي : ماو . ماو . ماو . وفي السادس انه قحطاني عدناني يمني من قوم بني عربان عصب من جملة عصابين يعرب ، وفي السابع انه يؤمن بالبعث يوم القيامة . وفي الثامن ان مذهبه يقوم على الاخاء في الدين وعلى الاخوانيات في العقيدة . ولكن قد تبين لي انه مدن يحبون أكل « الهندي » المقشر وان جرائم ثمانية يجب ان تسجل في ملفه ، بقدر ما اعطاني من افكاره الساعة المسمومة التي نادى ربنا الاعلى وما انفك ينادي بأن الرؤوس يجب ان تتطهر منها وان السجون يجب ان تمتلىء بها . فهو يجهل ان لا حرية في الاعتقاد وينفي ان ليس سوى ملك واحدا ومبدأ واحد وعقيدة واحدة قائلا : ان ذلك من القرون « الوسطى ... »

سأله المحقق : كيف ادعيت النبوة وقد قال نبينا لا نبي بعدي ؟

أجابه : ما معنى النبوة ؟

سأله المحقق : افادتنا مصلحة الرصد الجوي بأن درجة حرارتك في ارتفاع وان بحرك هائج شديد الاضطراب وأن امطارك غزيرة وأن لك مخططا لتحويل شط الجريد وسبخة السيجومي الى بحار هائجة مضطربة تعوم وتغطس فيها شراذم من السمك الضال والبطالين العاطلين الغاضبين والبتلز والهيبز والمكسيجوبات والميكروجوبات والشعور الطويلة واللواطة والسحاق والبغاء والزواج الحر والزواج الجماعي والنوفي والتكروري والعنف وافلام الوستيرن وجرائم القتل والافكار المستوردة والكتب الحمراء والكتب الخضراء والكتب الصفراء وكنت ماركس ولينين ونظريات ستالين في السياسة والمجتمع وآراء هتلر في المدنية والحضارة ومواقف الصعاليك من الملكية والملك ، والايديولوجيات المارقة والتمعش من الخناء ، والجوع والفقر واحمر الشفاه والمونيكول وجيمزبراون والخبز والماء والجنس وبوريس فيان وبريشت وايمي سيزار وكاتب ياسين وشي غيفارا والزطلة والزمياطي وبا مريم وعلاش دلالا وهنا لندن وسيتما تعلب وصوت العرب من القاهرة واشبيني هكه ... أجابه : وما في الجبة الا الله . سأله المحقق : ما قولك في النبي صالح ؟ أجابه : قال لهم ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها . سأله المحقق : ما قولك في يوسف الحسن ؟ أجابه : مات شهيدا . سأله المحقق : ما قولك في الخوارج وثورة ميسرة السقاء وثورة ابي يزيد صاحب الحمار ؟

أجابه : لا فرق بين عربي واعجمي الا بالعمل . سأله المحقق : ما قولك في الادب ؟

أجابه يعجبني شعر الصعاليك . سأله المحقق : ما قولك في الخلفاء الراشدين ؟

أجابه : زار عمر ذات يوم دار ابنه عبدالله ، فوجده يأكل شرائح اللحم . ففضب وقال له : الانك ابن امير المؤمنين تأكل اللحم والناس في خصاصة ؟ الا خبزا وملحا ؟ الا خبزا وزيتا ؟ سأله المحقق : فأجاب ثم سأله المحقق . فاجاب . ثم صمت المحقق . فلم يصمت . ثم نطق المحقق : يجب ان تخصى يا بني . انت نبي مزيف . وحجتي على ذلك انه لو ظهر نبيان في بلد واحد وفي نفس الان لفسدت تلك البلاد وعم الفساد واندلع الكساد ومات العباد لان ربك لهم بالمرصاد وانطلق من عقاله الجراد وعق الاولاد وانتفض الاوغاد وامتلأت الوهاد بالشر والنجاد ونحن يا بنيّ قوم خبزست نتنظر متى نصل وصولا الى الطريق القويم فيكون لرجلنا عليه وقع . فلا تكن الكلب الذي ينبح على السحاب فاني احذرك سوء العقاب. والله يا بنيّ لو اجتمع الانس والجن على ان يأتوا بمثل نبينا ومثل قرآننا الذي أتى به نبينا لعجزوا . ولتعتقد من الان ان الموت اقرب اليك من طرفة عينك وانبثاق الخاطرة في تفكيرك . فانت مسير ولست مخيرا ...

وسرعان ما تفطن الى أنه أتلف الطريق . اخطأ المسلك الموصل الى بركة الماء . هي طريق قديمة قد بدأت ملامحها تنعدم ، لطول ما هجرها الناس . وسرعان ما انتبه الى عرق كبير من الرمل لم يكن تركه في ذلك المكان منذ بضع سنوات ، قبل ان يغادر القرية ، ولكن خيل اليه أنه يعرف هذا العرق معرفة جيدة . قد يكون رآه في الحلم . قد . ولكن ذلك على كل حال وفي كل الاحوال لا يمنعه من تسلقه . ثم شرع في الصعود . صعد خطوة اولى ففاصت قدماه في الرمل . ثم صعدالخطوة الثانية ففاصت رجلاه حتى ركبتيه . ثم صعد الخطوة الثالثة ففاصت ساقاه ثم فخذاه في الرمل . قال : هل يمنع عليّ حتى صعود جبل من الرمل ؟ ثم غرز يديه في الرمل السخن مستعينا بهما على الصعود واجهد نفسه على ان تتعود يداه على ما يوجد في غضون ذلك الجبل الرملي من القذارة . حتى وصل . استطاع أن يصل أعلى بقمة في كثب الرمل . حتى تمركز على القمة المشرفة على القرية وعلى الواحة. رأى الواحة كالحة ورأى السبخة ملحية الطين . حين وصل حين رأى الواحة كالحة حين رأى . السبخة الملحية الطين حين رأى شجيرات السدر والغذام والفردق والطرفاء تصفق للريح الراكدة ، حين احس الفاصل الزمني والمكاني بينه وبين الارض ، حينئذ تدغدشت رؤيته ففرك عينيه . حينئذ قال : نحن بحق خير امة اخرجت للناس . ثم هوّم ببصره في الافق الساكن . ثم نظر الى المنحدر الذي تسلقه . ثم غاصت دمعة في قلبه . عندئذ رأى قبرة بالمكان في فضاء المكان ولم ينتبه الا آنئذ لسرسطتها المتواصلة وخفقان جناحيها وارتكازها في نقطة معينة في الفضاء . كان ذلك حين غاصت دمعت في قلبه . حين اندلعت فكرة في خاطره . حين هم فمه أن ينفتح حين صرخ بكل قواه : فددت . فددت . فـ د د ت . كان ذلك حين سكتت القبرة حين ارتعشت رجلاها . حين انتصبت شعاشيط النخل مصغية الى همهمته وقد انفرزت في عينيه شعاشيط النخل وانغفرت في خاطره فكرة القرية

قبضة الحديد

اكتب قلمي والعن كفي
فجّر ، فجّر صمت الورق
الدمع سيحصد أهدابي
والليل يغازله أرقي ! !
وأنا قد جعت... وفي وطني
وظمئت لاشرب من عرقي !
شيء مجهول يخنقني
...يبست كفاه على عنقي
اكتب قلمي ... وضح وضّح
اني بعثرت على دربي
ابليس يقهقه في أذني
والخوف يعشش في قلبي
اكتب ، اني منتظر
لقد حلو ... لقد عذب
لكن لو تكفر ساعاتي
فسيكفر بالدنيا ربي
اكتب قلمي ... ألهب عمري
فالشعر رماد في بلدي
كفى المجروحة تضنيني
أترى يا جرح يشع غدي ؟
اكتب . لا تأبه بنزيفي
... جرحي قد ألفته يدي ...
اكتب ، ان نفدت أوراقي
...ما أحلى الخط على الكبد

قرطاج جمال الدين حمدي

نحن امة قد تاصل فيها النفاق . نحن امة . يا قرية الجبن والخوف . ثم امتد به البصر الى الفضاء حيث لا قبرة وصرخ بكل قواه : لقد فددت ـ فددت ف د د ت . حينئذ . حينئذ انبزق على الرمل مغمضا عينيه كان ذلك حين اختطفه المنحدر . حين قد ركب الى القاع وقد تجمد تفكيره في نقطة معينة هي : ما معنى ان نقول : كش مات ؟

وجد نفسه في المنحدر جالسا على فوتاي مريح أمام ثلاثة رجال لهم وجوه قردية وتذكر اسئلتهم له عن الصغيرة والكبيرة من حياته وقد أمسك أحدهم بملف ضخم مكتوب على الصفحة الاولى من غلافه اسمه باحرف سوداء وتذكر . قال له المحقق : انت تعرف جيدا ما معنى الا تكون مخيرا في تفكيرك ، وانت تعرف جيدا ان القانون يعاقبك على افكارك القابعة في ركن ما من رأسك اذا كانت مخالفة للقانون والعرف والعادة والتقاليد والاخلاق العامة والاداب الخاصة . وانت تعرف جيدا ما معنى مخك وتنظيف عقلك وتشييح ريقك مما علق به من الجراثيم . وتذكر جيدا آلة التسجيل التي اسمعته خطبة لاحد الامراء الداعين بجمهورية واقعية افلاطونية من مبادئها لو كانت النظافة من الايمان لكان الوسخ من الشيطان ، ولو كان من غشنا ليس منا لانتفت العلاقة بين الماء والبحر وبين السبخة والشط بين الفعل والفاعل .. ثم تابعت عيناه تحليق الحداة والقبرة في اعماق الفضاء .

ولكن انتباهه الى الرمل عاوده . فاخذ يتحسس باصابعه حبيبات الرمل . يقال انها ذهبية . وامتزجت باصابعه مادة لزجة عالقة بحبيبات الرمل عجب لوجودها والطقس قائظ . عندما أمعن النظر في السفح الذي انحدر اليه ، تبين ما تجمع فيه من قش وبقايا أوساخ قد جمعت بينها الريح في هذا المنحدر . وعانق قذارة السفح . لم يشعر بالغدة . غاصت اصابعه في الرمل الممتزج بالقذارة وغاصت في قلبه عاطفة جارفة تشعره بانه من هذا السفح قد خلق وان الطمع في القمة جريمة وان القرية لن يصلح حالها الا اذا أزيح هذا العرق من الرمل واستوى اعلاه بأسفله . انغرزت اصابع يديه في الرمل ، وغاصت في قلبه عاطفة الانتماء . ثم حمل الرمل بكلتا يديه ثم عفر به وجهه وقد تسارعت دقات قلبه وانغرزت في عينيه صورة حوت . انبثق الحوت من بركة ماء راكدة كان يطمح الى وصولها . حرك انبثاق الحوت الماء قال الحوت : انا الحوت الذي التهم يونس ، ويونس الان في جوفي . وجوفي جوف صحراء .

قال المعانق للسفح : وهذه السبخة كانت بحرا . ومنذ التهم الحوت يونس أصبح البحر سبخة يتنفس في اعماقها الصمت والبرد والقيظ . كذلك حلمه على يونس ان يعتزل الناس في جوف حوت ، في جوف صحراء ، في جوف سبخة .

« قد يلتجيء اليقطين الى ذراعي سنديانة فلا تغطيه . وقد تفتح سمكة فاها لتلتهم البحر . وقد تتعطل مسام النسيم عن التنفس . فيشعر اليقطين في البحر بالاختناق . وتشعر سمكة في غصن طرفاء بالبرد . ولا السماء تحمل السمكة ولا الارض تحلم بالطرفاء . فتضمحل من الافق صورة العدل والحرية . وتبقى صورة الزمهرير فصيحة . الزمهرير المتفتت في شرايين الليل والنهار . والثلج المتفتت في السواعد العارية . والصقيع المتفتت في الاقدام الحافية . فتبتسم الطرفاء للبرد وترفص اغصانها رقصا . ويكفهر وجه السمكة لشعور عميق بالدفء . فيرتعش الحوت في البحر وتوشك ريح صرصر ان تهب لولا ان ترى برهان ربها فيسمع لتدحرجها . ونقول السمكة ليتني كنت حوتا فآكل على مائدة كبيرة . وهي تحلم بالبحر والبحر لا يعلم بحالها ، لان يونس في أعماق اليم يحتضر . لان يونس في اعماق الليل محتضر ويونس في اعماق الليل تغمره السكينة ، وفي جوف اليم عشب ، وفي جوف الحوت صحراء يفور دمها وشجرة تدعى اليقطينة وطرفاء متفسخة الشكل . يا عري الاراضي السبع والكواكب التي لا عد لها متى ننسكب الافق دمعة في جوف صحراء ؟ فلا تنبت البثور على فجر جميل ولا يتبقع الصبح بالسواد . يا انسلال الغد من امس كان يدعى يونس ويا انطفاء اليوم . »

بمنع عليك بلوغ البركة المتجمدة . ويمنع عليك مغادرة السبخة . ويمنع عليك عدم الاعتراف ، ويمنع عليك عدم الاقتناع . ثم انطلقت القبرة تسرسط من جديد . ثم انطلقت تحلق بجناحيها في الفضاء منغرزة في طبقاته العليا . وقد امتلأ وجهه بالرمل . وقد امتلأ قلبه . ثم انغرزت دمعة في قلبه . لقد تذكر . ثم تمتم : يا قرتي . يا قرية الاعياد والابطال .

ابراهيم بن مراد